سعد زغلول

٢

الثورة العرابية — المحاماة — القضاء

وقفنا في مقالنا الاول عند ما كان لتعاليم جمال الدين من الاثر في تكوين سعد ، ولقد روى الرواة أن سعداً قال — أول ما شهد دروس جمال الدين — «هذا بغيتي» وان جمال الدين بعد ما عرفهُ وخبرهُ قال : « هذا الشاب طلبتي » . وقيل ان سعداً ذكر امام جمال الدين رأيا للشيخ الانبابي ، فقال لهُ جمال الدين : ومن هو الشيخ الانبابي ! — ستكون عظيماً واعظم منهُ . وكتب سعد يوماً مقالاً عن الحرية أعجب به جمال الدين ، وقال : ان الدليل على انعدام الحرية في هذا البلد ألاَّ يكتب عنها الا هذا الفتى الناشيء

***

وترك سعد منصبهُ بالوقائع المصرية وعُين معاوناً بالداخلية وكان هذا العمل من اثقل الوظائف عليهِ ظلاً . قص علينا رحمهُ الله أخيراً عجب وصف انهُ طلب من قبل رئيس لهُ بالداخلية بان يستدعي سماحة السيد البكري ، فذهب لاستدعائهِ فلم ينجح ، قال: فعدت فرحاً لان هذا كان خير ضمين لي بألا اكلف بامثال هذا العمل في المستقبل . واتفق أن معاوناً آخر كان معهُ في الداخلية عرض ان يقوم بهذه المأمورية وكان خبيراً بالاساليب والوسائل التي تضمن النجاح فيها وفعلا وفق واستدعاهُ « سيدنا » كما كان لقبهُ في ذلك الوقت

من اجل هذا لم يطل عهده في الداخلية ، وانتقل منها الى وظيفة طربت لها نفسهُ وهي وظيفة قاضي قضايا الجيزة ، وكانت اشبه شيء بوظيفة القاضي ، اذ كان من خصائصهِ ان يصدر الاحكام في كثير من المواد الجزئية

وقد كانت الخبرة التي اكتسبها سعد في تقدم لاحكام المجالس الملغاة هي المدرسة التي هيأتهُ لان يشغل هذه الوظيفة بتمام الجدارة

سعد والثورة العرابية

مهما قيل عن اسباب الثورة العرابية فلا شك ان المظالم التي ورح تحتها الجيل الذي عاش فيهِ سعد من ضرائب كانت تجبى من غير حساب لتسديد الديون وفوائدها

المتراكمة ومن تحكم الدول في مصر وفي شؤونها ومن تسلطها على الخديو توفيق وتأييدها للحكم المطلق الى غير ذلك من المظالم التي كانت تصوَّر للشعب على يد خير المصورين وابرع الكاتبين وامهر الخطباء والواعظين أمثال جمال الدين والشيخ محمد عبده وعبد الله نديم واديب اسحق والبارودي وغيرهم، فكانت الثورة انتفاضاً على الحكم المطلق والتدخل الاجنبي، ولقد كان سعد ممن تعاونوا بهذه الحركة وغذوها باقلامهم، كما تدل عليه كتابة في جريدة الحكومة الرسمية نذكر منها كلامهُ عن الاستبداد والشورى: «ان الاستبداد المطلق ممنوع منابذ لحكمة الله في تشريع الشرائع، ومعاند كل المعاندة لصريح الآيات الشريفة والاحاديث الصحيحة، فانهُ نبذ للدين واحكامه، وسعيٌ خلف الهوى ومذاهبه، وذهاب الى خفض كلمة الله العليا، وخرق لاجماع السلف الصالح، اذ لم يبيحوا في جميع اطوارهم ان يتولى عليهم من يخالف الكتاب والسنة الى احكام شهوته وهواهُ. يشهد بهذا صنيعهم في بيعة الامراء والعهد الى الولاة، يقولون لمن يبايعونهُ: بايعناك على ان تكون خليفة رسول الله تتبع سنتهُ وتسلك طريقهُ، ولم تر طائفة منهم ولا قوماً ولوا عليهم أميراً على كونه يتبع هواهُ، او يعمل فيهم بما يراهُ»

وكانت صلة سعد بالعرابيين معروفة، فكان الصديق الحميم للشيخ محمد عبده الذي يقول عنهُ محامي عرابي انهُ كان روح الثورة العرابية وملهمها، وعلى مذكراته عن الثورة اعتمد «برودلي» في دفاعه عن العرابيين، وكان سعد من المعجبين بشعر البارودي خصوصاً ما نحا فيه نحو بشار من التغني بالاباء وعزة النفس

فكانت هذه الكتابات الثورية وتلك الصلات المعروفة كافية لان يحلَّ بسعد غضب ولاة الامور فقبض عليه مع العرابيين، وكان القدر قد كتب لهُ ان يشهد في فجر حياته الامة المصرية تنتفض انتفاضة من في القبور، وتهب وراء عرابي في طلب المجد والحرية ثم تصدمها خيبة الأمل فتركن الى السكينة، ثم يشهدها في شيخوخته وقد استجمعت قوتها وتأهبت للكفاح وانطلقت خلفهُ كالركان يغلي ويثور

كان سعد في الثورة الاولى شابًّا يافعاً، وفي الثورة الثانية شيخاً محنكاً، وكان في الاولى نزيل السجون، وفي الثانية رهن المنافي، وكان في الاولى بين الامة واحداً من انصار العرابيين، وكان في الثانية على رأس الامة أبا للثورة، والامة كلها من انصاره

كان يمثل في الثورة الاولى مصر الشابة الضعيفة تحمل في قلبها مرارة الالم وتطوى

ضلوعها على الامل المحتبس يطالبها في كل صباح ، تجالد لاستبقاء شخصيتها رغم عوامل الفناء المسلطة عليها

وكان في الثورة الثانية يمثل مصر وقد كونتها الحوادث وعلمتها وألفت عليها الايام والليالي عبراً ودروساً وخرجت من المحن اوفر حكمة وأعز نفساً واوفى كرامة

وبين الثورتين (١٨٨٢ — ١٩١٨) اتصلت حياة كلها عمل وتفكير وجهاد ، حياة متناسقة تسعى الى غاية مرسومة لا تعرف الالتواء ولا التراجع ، وبين التاريخين نور لا يعتريه ظلام انتظمت فيه حياة سعد يسير من مجد الى مجد ، ومن عظمة الى عظمة ، يشار اليه في كل مرحلة بالبنان ، متفوقاً في كل وسط ، ظاهراً في كل جماعة

على ان المجد الذي توج شيخوخته سنة ١٩١٨ والشعار الذي رفعته فوق رأسه ثورة سنة ١٩١٨ لم ينسه مجد سنة ١٨٨٢ . خطب في ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣ عقب عودته من جبل طارق فقال: « لست خالق هذه النهضة — كما قال بعض خطباؤكم — لا أقول ذلك ولا أدعيه ، بل لا أتصوره ، انما نهضتكم قديمة تبتدىء من عهد مؤسس الاسرة المالكة ، وللحركة العرابية فضل عظيم فيها ، وكذلك للسيد جمال الدين الافغاني واتباعه وتلاميذه أثر كبير ..... كل هذا حق ، ويجب علينا ان لا نكتمه ، لانه لا يكتم الحق الا الضعيف »

بدء اتصال سعد بالمحاماة

كان من نتائج الثورة ان فصل سعد من منصبه ، فلم يرقه أن يطرق باب أحد التماساً للرجوع الى منصبه أو الى منصب غيره ، ورأى اعراضاً ممن كان يتوسم فيهم الخير ونظر فاذا اخوانه وكبار اصدقائه بين منفي وسجين والجميع تحت سخط وغضب ، وماذا يعمل شاب مثله في هذه الاحوال ، قال رحمه الله : « نظرت الى المحاماة فاذا من رزئت به من الذين كانوا عنوان محنتها وذكرها كأنهم الشوك يؤذي الناس ويعذبهم ، وذلك انهم كانوا يسيئون الى عباد الله بخيانتهم وزيفهم عن طريق الحق والهدى ، ولذلك ترددت بادىء بدء ، ثم قلت في نفسي : ما ضرك لو كنت وردة بين هاتيك الاشواك . . . . فلما استقر بخاطري أن القيام بواجبي خير للمرء حتى وان كان بحرفة هي باهلها من سقط المتاع ، أقدمت مستحصد العزم على الاشتغال بهذه الحرفة بين اولئك الذين عددتهم شوكاً

« . . . . هذا ما كان يحيط به حديث نفسي يوم أردت الاشتغال بحرفة المحاماة

وان في العالم الكوني وجوداً يجب صاحبهُ ان يشعر به ، ذلك هو الوجود الانساني ، فكان يخيل اليّ ان استقامتي في حرفة منيت بالفساد والضلال لا بد ان يعرف قدرها الوجود فاجتنى ثمارها ، فكنت لذلك اتوسم أن تأتي ظروف أحبها وتحبني . . . . اشتغلت بالمحاماة متكرماً على أهلي واصحابي . . . . واتصلت بها والخجل يستر وجهي لسقوط اعتبار من كانوا يتعاطونها . . . . كان اسم المحامي مساوياً لاسم المزور ، وكان لا يستطيع أن ينتسب لاي بيت من البيوت العالية ، وكنت أجتهد ألا يعرفني الا ارباب القضايا ، وان كنت لا أجهل ماذا تكون العاقبة »

أما حال المحاماة وقت اتصال سعد بها ومقامه فيها فقد تعرفناهُ من الرجوع الى الخطب القيمة التي القيت في حفلة التكريم التي اقيمت لسعد في سنة ١٨٩٢ عند ما عين قاضياً بالاستئناف

خطب الهلباوي بك في تلك الحفلة يصف حال المحاماة فقال: «كانت المحاماة ابعد الاشياء عن الشرف والفضل ، فقد تعلمون ان محاكم الاهلية حلت محل المجالس القضاة التي كان امامها محامون يسمون بوكلاء الدعاوي ، صاحب السمعة فيهم من كان أدرى بأغراض القضاة وأعرف بحاجاتهم ؛ فكان لا شك هذا الفن ضائع الاعتبار

«فلما شكلت المحاكم الاهلية لم يجسر أحد ان يقدم نفسه قرباناً على باب هيكل هذا الفن الشريف غير صاحبنا (سعد) وظل يعالج مرضهُ ويرتق فتوقهُ ، ويجاهد في سبيل اعلاء كلمته حتى اسدل الستار على كثير من فضائحه ومعائبه ، فتشجع اذ ذاك أرباب الشرف واقدموا على الاشتغال به

«لهذا كان اشتغالهُ بالمحاماة بادىء بدء جهاداً مستمراً لولاهُ ما استطاع أحد بعد الاشتغال بهذه الحرفة ؛ فالفضل كل الفضل في تسمو مكانتها لشخص سعد »

اشتغل سعد اذن بالمحاماة في هذا الوقت ، فكان اقدامهُ على الدخول فيها شجاعة واقداماً ، وكان اقتحامهُ لهذه المهنة في تلك الاحوال مؤذناً بما يحمل بين جنبيه من نفس ملئت جرأة واقداماً وشجاعة ، وتجلت في اختياره لها روح المصلح الشجاع وقوة نفسه بنفسه ، فقد أقدم عليها واثقاً من قدرته على تطهير سمعتها ، وانهُ سيكون فيها وردة بين اشواك

القبض على سعد بعد الثورة

في اوائل عهد الاحتلال قبض على سعد للمرة الثانية هو وزميلهُ في المحاماة حسين

افندي صقر ضمن جماعة زعموا انهم الفوا جمعية سرية اسموها (جمعية الانتقام) .على ان التهمة لم تكن لتروع سعداً اذ لم تكن لهُ معرفة بأحد من رجال الجمعية

وشكلت لمحاكمته هو والمرحوم حسين افندى صقر لجنة مختلطة تحت رآسة قاضي بلجيكي اسمهُ فلمكس واعضاؤها (المسيو دوهلتس الذي كان فيما بعد مستشاراً لمحكمة الاستئناف الاهلية في نفس الدائرة التي كان سعد عضواً بها او رئيساً وهو الذي اختارهُ المستشارون سنة ١٩٠٦ ليكون خطيب محكمة الاستئناف في حفلة تكريم سعد عند تعيينه ناظراً للمعارف) وكان من اعضائها ايضاً هيبه واصف باشا والمرحوم حامد محمود بك. ومحمود سالم بك . فظهرت براءتهما للجنة ولكنها ظلا سجينين بقشلاقات قصر النيل عناية وتسعين يوماً وقد حاول ولاة الامور نفيها الى السودان ولكن فخري باشا ناظر الحقانية عارض في ذلك واعتبرهُ تحدياً للقضاة الاجانب الذين التجأت اليهم مصر لتعلم محاكمها — وظلا بالسجن حتى رفع امرها الى المستر مكسويل وكان نائباً عمومياً فأمر باطلاقهما في الحال . وقد قصَّ علينا دولة سعد باشا قبيل وفاته امر هذا السجن فقال: « لبثنا في السجن اشهراً رغم وضوح براءتنا واعلان رأي المحققين .وألح علينا بعض الصحاب ان نبلغ الامر الى الانجليز فرفضنا حتى تتقدم الينا محام قديم كان من اصحاب الحيل الدفاعية والاساليب الطريفة في تخليص القضايا .وكان من الحيل التي لجأ اليها ان التمس لنا أصلاً مغربياً وكتب لنا نسبة كنا نحن اول المستغربين لها الضاحكين منها حين اطلعنا عليها بعد الافراج عنا . ومما الجأهُ الى هذه الحيلة ان فرنسا كانت قد استولت على تونس واخذت في الحاق التونسيين المقيمين في مصر برعاياها ... وكان بعض اتباعنا يريد عقابنا وتفتيش الشهادات لالصاق التهمة بنا . ثم ارادوا ان ينفونا الى السودان . . . . . ولم تكن النسبة المغربية سبب نجاتنا كما اراد بحامينا جزاهُ الله ولكنها بقيت فكاهة نتذاكرها ونتحدث بها اصدقاؤنا »

المحامي السجين

قال رحمهُ الله في خطبة لهُ : « وقدر لي اني حبست في اول اشتغالي بهذه الحرفة ظلماً وعدواناً فنفضي شروعي فيها وقد كنت ادافع عن الخصوم بالكتابة ردًّا على التقارير التي كانت تقدم اليَّ للاجابة على ما فيها من المسائل فانظروا يا اخواني في امر محام كان يناضل عن الحق وهو منهُ سليب »

سعد يعود للمحاماة

« وبعد ان انقضت مدة سجني عدت الى مزاولة هذه الصناعة لا ابغي بها غير الحقائق مطلباً ..... ودخلت في هذه الصناعة وتحملت ما تحملت ولم يكن هناك نقابة تدافع عن حقوقها بل كانت المحاماة تحت الاحكام العرفية وكان يكفي ان رئيس المحكمة يغضب على وكيل فيحزمه صناعته ...واذكر يوماً كنت ارافع فيه امام محكمة منها فطلب وكيل النيابة تأجيل القضية لاستيفاء بعض الاجراءات فقلت «لا يجب تأخير الدعوى لانهُ لا يصحُّ اطالة سجن المتهمين» فقال لي رئيس المحكمة: اسحب كلامك فان المحكمة لا يجب عليها شيء ،فدفعتني شدة جرأتي على ان اقول لهُ باني لا اسحب فكرة اعتقدها حقاً فتداول مع زملائك وقرروا رفض طلبي او عدم رفضه . قلت هذا وانا متخوف ان يجر اليَّ حرماني من صناعة المحاماة ولكن قدر القدر ان يكون بين القضاة قاض كان صديقاً لنا اخيراً وهو المرحوم علي بك فخري فعفوا عني » . اما مقام سعد في المحاماة ومكانهُ بين المحامين ، فقد اعتمدنا في تصويرهما على ما قيل في الحفلة الكبرى التي أُقيمت لهُ في ١٨ يوليه سنة ١٨٩٢ عند ما اختير للقضاء في محكمة الاستئناف واقام لهُ المحامون حفلة في فندق الازبكية حضرها مائة محام وجميع قضاة الاستئناف وخطب فيها ثلاثة عشر محامياً وتكلموا في خطبهم صورة للمحامي النابه الذكر الدائم الصيت الابي النفس . خطب في تلك الحفلة اخوانهُ الذين ساجلهم وساجلوهُ . وناضلهم وناضلوهُ . وعرفوهُ في ساحة القضاء خصماً عنيداً قوياً . صلب القناة ايَّا لا يغمز جانبهُ وعرفوا فيه لساناً قوالاً ينفث السحر . وعارضة قوية . وصفاء في القول والخطاب لا يعادلهُ الا صفاء قلبه . وسلاسة في التعبير وسهولة في البيان . وقوة في الاقناع والافهام . وقوة جدل تعرف كيف تهزم الباطل وتجعلهُ هباء وتعز الحق وترفع لهُ لواء . وكيف تخلص الحقائق من بين غياهب الضلال والشبهات. ولسان لا يعرف الفاحش من القول ولا اللغو من الكلام . قال رحمهُ الله في خطبة لهُ : «وكان المحامون مشهورين بمهارتهم في ان يشتم بعضهم بعضاً وقد اصابني في اول مرافعة امام محكمة الاستئناف ان زميلي كان رجلاً قديماً وكنت صغير السن اذ كان عمري ٢٢ سنة وكان مستأنفاً فأخذ يطعن عليَّ بدون ان يعرفني او اعرفهُ ونسب اليَّ اني كنت محامياً قديماً وما كنت كذلك .. وبعد ذلك الهمت القول بان كلام زميلي ينحصر بمدحذف المطاعن في كذا .. وما جاريتهُ في شتائمه وجريت على هذا الاسلوب

وجرى آخرون . . . قناعةً وتعفف وتحصن ضد ضعف النفس واغرائها وميل الى اصلاح ذات البين وفض الخصام . قال في خطاب لهُ في سنة ١٩٢٤ : «اذكر اني عند ما كنت محامياً .. ويأتي موكلي مريداً للصلح لحشية خصمه من توكيلي عنهُ ارحب به واسهل الامر عليه بان أرد اليه مقدم الاتعاب التي قبضتها منهُ . اني ما كنت اقيد مقدم الاتعاب في باب الايرادات بل في باب الامانات لا في نفسي ضعف نفسي حتى اذا اراد الموكل الصلح ارد لهُ مقدم الاتعاب واقول لهُ هذه امانتك رددت اليك »

كان يحترم نفسه ويلزم الجميع باحترامه ، قال في خطبة لهُ : «كنت احب ابداً ان يحترمني القاضي فأحذر كل ما يؤدي الى غير ذلك . ولعل سعادة الرئيس (اشارة الى بليغ باشا) يذكر انهُ لما كان بين اعضاء لجنة الامتحان التي طلبتني امامها وسألتني عما هي واجبات المحامي . كان جوابي : درس القضية جيداً والمدافعة عن الحق واحترام القضاء .... ويعلم الله كم من ليال مضت ما كان امرّها عندي لا لاني كنت في عيش ضنك . ولا لاني قليل اليسر ولكن لان الحقيقة ضائعة لا اجدها في طريق نشداني لها بين اناس عهدت اليهم امانة ولا من يؤديها منهم لاهلها . وكنت أرى القانون يكرهني على احترام القضاة وضميري يأبى الامتثال لاحترام كثير منهم . فكنت أجمع بين الاحترام والتحقير ولا استطيع التوفيق بين الظاهر والباطن . كنت اسأل من القضاء حقاً ومن النيابة واجباً فلا أجد هذا ولا ذاك »

قال في وصفه نقولا توما : «كل من خاصمك من اقرانك كان لا يلبث ان يعترف بأنك صاحب الفضيلة الواجب ان يحترم . وان كنت اول محترم لك ومعترف بأنك الممتاز بالفضيلة . ولا أجد احداً من صافاك أو جافاك الاّ اقتنع بانك أولى الاخوان بالاحترام فتشرب على سر اختصاصك بالفضيلة »

وقال عنهُ احمد حشمت بك الافوكاتو العمومي عند ما خطب في تلك الحفلة : « ان النيابة والمحاماة خصمان مختلفان وان كان كل منهما يناضل للحق والانصاف . وقد كان سعد بين اولئك الخصماء أقوامهم حجة ودفاعاً عن الحق فحق للنيابة ان ترحب به فيصلا يقضي بالحق كما عهدتهُ في خصومته نصيراً لهُ »

وقال حسن الشمسي : « بانت مقام القضاء لا على رواحل الصدف ولا محركاً بعوامل الاغراض الذاتية بل بما عرفناهُ فيك من طهارة الذمة والصدق وقوة الحجة في البيان والبرهان . وقد امتزت بالسبق في كل هذه الصفات فلم يدرك شأوك فيها أحد . نشهد

انك كنت المرجع الاعلى لكل من اشكل عليه امر أو اغمض عليه حق. وكنت تشعر من نفسك بمنزلتك العالية في قلوبنا فاذا تكلمت أو تحركت رمقت العيون بالاجلال والاحترام والاعتبار. وقلنا قال الفاضل وجاء الفاضل. أفقدتنا تنطق بذلك وان كانت ألسنتنا سكوت »

وقال ابراهيم بك الهلباوي : « اصبح الفلاح في زوايا القرى يعتمد على اسمه في مقاضاة خصمه ان كان محقاً وتخور قواهُ وتحلُّ عزيمته عند ذكر اسمه ان كان مبطلاً : كانت اعمالهُ استاذاً لكل من اشتغل بحرفة المحاماة بل لكثير من القضاة. وهذه تقاريره الشرعية والعقلية محفوظة لدينا يرجع اليها كل من أبهم عليه أمر قانوني. لقد أتم دروسهُ علينا سواء من حيث الصدق والاستقامة وطهارة الذمة أو من حيث اللباقة والفصاحة او من حيث النقط القانونية الدقيقة »

وتكلم مثل ذلك جبران خليل واحمد الخشيني وحسن الشيمي وغيرهم

هكذا كان سعد في المحاماة مثلاً عالياً من غير مثال يحتذيه لشرف المحامي وكرامة المحاماة. وضع اساسها. ووطد دعائمها. وطهر ذكرها. ورفع شأنها. ونظم تقاليدها. ووهبها من سحر بيانه البيان المتدفق. والفصاحة المتدفقة. وكم من مظلوم تراءى لهُ الموت شبحاً في ظلام سجنه انتدبهُ سعد بسحره. وكم من محكوم عليه لجأ الى سعد في آخر الامر فانقذهُ من مخلب الموت

ولقد كان من الطبيعي ان يصبح سعد محامياً. فاي مجال يتسع لهذا القلم الخصيب الطيّع. وذلك اللسان الصوال الفوال غير مجالها. واية ساحة يرن فيها هذا الصوت العالي وتبدو فيها تلك العارضة القوية غير ساحتها. ما خلق سعد ليجري قلمهُ في اوراق المكاتب والدواوين. وما كان لبيان سعد ان يحبس في ديوان. أو يوقف على احدى المصالح بين ارامة جدران. بل لقد احس سعد يوم عزلوهُ من منصبه بأنهُ وإن عطل منهُ فليس بمُعطل من المواهب. واحس بان في داخلية نفسه دافعاً يدفعهُ الى الاتصال بالجماهير عن طريق منبر المحاماة، خطب مرة فقال : « ما سبقت الى اتخاذ فن المحاماة شعاراً الاَّ لانها الحرفة التي تستلزم بسط اراء المشتغل بها على حضرات القضاة والاقران وجماهير العامة فهي الحرفة التي تظهر فيها قيمة المرء في وسطه » أليست المحاماة خطوة الزعماء الاولى في الزعامة : لقد كان غمبتا محامياً. وكان جول فافر محامياً

محمد صبري أبو علم

صورة تمثال شكسبير في كنيسة الثالوث بلدة
ستراتفورد مسقط رأسه

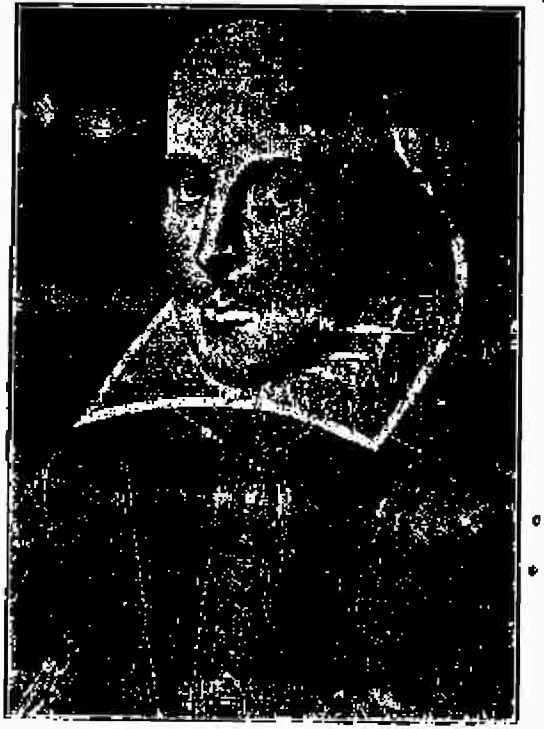

شكسبير عن النسخة المطبوعة سنة ١٦٢٣
مقتطف دسمبر ١٩٢٧
امام الصفحة ٣٨٥